

الفصل الخامس عشر

أوروبا والمنغرات الدولية

بعد الحرب العالمية الثانية

أولا : الوحدة الأوروبية :

ظهر لزعماء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أن هذه الحرب قد أضعفت مركز القارة الأوروبية السيسى لدرجة أنه لم يعد لها صوت مسموع لا فى المنتديات الدولية ولا فى المحافل الاقليمية أو غيرها ، وأن تقسيم القارة الأوروبية الى دول متعددة وكيانات صغيرة متناثرة هو أحد مظاهر ضعف هذه القارة ، وأنه لى تسترد أوروبا مكانتها فى مواجهة العملاقين الكبيرين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وينتقل اليها مركز الثقل الرئيسى فى ادارة الشؤون الدولية أو على الأقل لى يكون لها حق المشاركة الفعلية فيها لابد لها أن تتكاتف من أجل بناء شخصية سياسية واقتصادية لها وزنها . ومن هنا ظهرت بعض الاتجاهات والأفكار التى تدعو الى التدخل عن فكرة السيادة القومية ، والدعوة الى الوحدة والتكاتف فظهرت حركة « أوروبا المتحدة » و « المجلس الفرنسى لأوروبا المتحدة » و « المجلس الأوروبى للتعاون الاقتصادى » و « الحركة الاشتراكية للولايات المتحدة الأوروبية » و « المجلس العام الأوروبى » ، و « الاتحاد البرلمانى الأوروبى » وما الى ذلك من المجالس والهيئات التى تدعو الى الوحدة .

وتنفذا لهذه الفكرة تم فى ١٧ مارس ١٩٤٨ م توقيع ميثاق الاتحاد الغربى الذى يضم إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرج وقد تضمن هذا الميثاق نصوصا تدعو الى التعاون بين هذه الدول فى النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، هذا الى جانب ضرورة حل المنازعات التى تنشأ بين الدول الأعضاء بالطرق السلمية .

وفي عامى ١٩٤٩ — ١٩٥٣ قامت عدة محاولات لتوحيد أوروبا سياسية كانت اولها الدعوة الى انشاء مجلس أوربى ، ولكن نتيجة لاختلاف وجهات النظر بين دول أوروبا تعثرت الجهود المبذولة لاقامة هذا المجلس وللتغطية على فشل هذه المحاولات برزت فى عام ١٩٥٣ فكرة انشاء منظمة سياسية أوربية تجمع شمل جميع دول أوروبا فى نطاق سياسى واحد ولكن ضخامة هذا الهدف أدت فى نهاية الأمر الى تعذر تنفيذ هذه الفكرة أيضا .

ونتيجة للخلافات السياسية بين الدول الأوربية بدأت فكرة الوحدة الأوربية تركز على الجانب الاقتصادى لعلها تجد فيه ضالتها ، وبالفعل تلاقى المصالح الاقتصادية بين معظم دول أوروبا فوئعت ألمانيا الغربية وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا ولكسمبرج^(١) اتفاقية فى روما فى ٢٥ مارس ١٩٥٧ بانشاء السوق الأوربية المشتركة وكان من أهم أهدافها ازالة الرسوم الجمركية بين الدول الأعضاء ، وكذلك القيود على الواردات والصادرات من السلع ، وحرية مرور الأشخاص بين الدول الأعضاء دون قيود ، وعدم التمييز بين مواطنى هذه الدول من ناحية شروط العمل ومستوى الأجور ، ووضع سياسة موحدة فى ميادين الزراعة والنقل ، وتنظيم الاسعار ، وانشاء بنك للاستثمارات الأوربية لتسهيل عملية التوسع الاقتصادى .

وتضم السوق الأوربية الآن عشر دول غالى حاسب الدول المؤسسة انضمت بريطانيا وإيرلندا والدانمرك واليونان .

وطبقا للمادة ٢٣٧ من اتفاقية روما فانه يجوز لكل دولة أوربية أن تطلب العضوية كما يجوز للدول غير الأوربية التى ترتبط بمصالح اقتصادية مع الدول الأوربية أن تحصل على عضوية الانتساب الى المجموعة الأوربية .

وتعد السوق الأوربية وسيلة ناجحة لحماية مصالح وحقوق الدول الأوربية الصغيرة ، اذ تحميها من اطماع القوى المحيطة بها وهذا يساعدها على تثبيت الاستقرار السياسى فى بلادها كما تعد قلعة اقتصادية عملاقة وقادرة على التحرك فى الطريق الذى يحقق لأوروبا الرخاء .

(١) دوقية لوكسمبورج ملكية عدد سكانها ٣٢٠ ألف نسمة ، يتكلمون الفرنسية والألمانية ، ويتمسكون بقوميتهم أشد التمسك .

وحاليا تتجه المجموعة الأوروبية الى الاندماج نحو الوحدة ، وهو الاندماج الذى يتطور يوما اثر آخر رغبة فى ان تؤدى الوحدة الاقتصادية الى تحقيق الوحدة النقدية وصولا الى الوحدة السياسية .

ان الدول الأوروبية تسعى حاليا نحو بناء البيت الأوروبى الواحد من أجل ايجاد ظروف مستقرة يتحقق من خلالها السلم والحفاظ على أمن أوروبا .

ثانيا : عصر جورباتشوف وسياسة البيريسترويكا :

ان من ينظر الى الأوضاع الدولية قبل وصول جورباتشوف الى قمة السلطة فى الاتحاد السوفيتى يجد ان التنافس بين الكتلتين الشرقية والغربية كان ينذر بانفجار كامل .

ولكن بعد وصول جورباتشوف الى السلطة فى مارس ١٩٨٥ ، انقلبت الأمور رأسا على عقب ، فانفضت أوروبا الشرقية وأزالت أثقال الحكم الشمولى عن كاهلها ، وانهارت الأنظمة السياسية فيها ، وانتهت الحرب الباردة بين الشرق والغرب وحل محلها التفاهم والوثام ، وبدأ العالم يترك البندقية ليحمل مفاتيح الاقتصاد ، وانتقلت الأمور من أيدي العسكريين الى علماء الاقتصاد وخبراء الانماء .

البيريسترويكا مصطلح روسى معناه إعادة البناء :

وقد ظهر هذا المصطلح فى أعقاب تولى الرئيس السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » لمقاييد السلطة فى الاتحاد السوفيتى فقد أعلن عن برنامجه فى أثناء اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى وفى جلسته الموسعة فى إبريل ١٩٨٥ وسرعان ما اتخذ هذا المصطلح استراتيجية جديدة للبلاد ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يستخدم على نطاق واسع وازداد بعد نشر جورباتشوف لكتابه البيريسترويكا .

والبيريسترويكا جاءت ضرورة ملحة من أجل انقاذ الاتحاد السوفيتى من ازماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخطيرة . التى بدأت ملامحها تظهر على المجتمع السوفيتى بصورة واضحة ، وذلك عن طريق القضاء على

حانة الركود ، وإيجاد آلية مضمونة لتطوير الاتحاد السوفيتى ومنحه قدرا أكبر من الديناميكية^(٢) .

وتعتمد البروسترويكيا بشكل مباشر على الخروج على الجدلية الماركسية وتحويل الاتحاد السوفيتى من النظام الشمولى الى النظام الحر . والانفتاح على الغرب ، والسماح للمنتجين بقدر من الحرية فى اختيار المستوردين والتعامل معهم بحرية دون تدخل من الحكومة ، ونقل تجارة التجزئة الى القطاع الخاص وخفض النفقات العسكرية ، كما تدعو الى نزع السلاح واحلال توازن المصالح محل توازن القوى ، ورفض سيطرة الاحزاب الشيوعية على البلاد الاشتراكية .

وقد تزامنت البروسترويكيا مع التطورات السياسية فى المعسكر الشرقى ، عهى ترفض استبدادية الحزب الشيوعى فى البلدان الاشتراكية .

وقد قاد جورباتشوف سياسة البروسترويكيا باقتناع وايمان بأن الوضع الاقتصادى المتردى فى الاتحاد السوفيتى يجب تداركه بعد ان فشلت الخطط الزراعية القائمة على الاشتراكية ، ونقصت المواد الغذائية وانتشرت السوق السوداء وتفشت البطالة بين افراد المجتمع ، وازداد الخل . فى الميزان التجارى ، وضعفت القدرة على استثمار الامكانات المتاحة لدرجة أصبح معها الاتحاد السوفيتى يستورد القمح مع انه من أغنى المناطق الزراعية فى العالم ، وذلك لاهمال الحوافز الفردية ، وكبت غريزة حب التملك لدى الانسان ، كما ضعفت امكانات الاسكان والخدمات والتموين .

والى جانب ذلك فقد انتشرت الرشوة والفساد ، وتسلط اصحاب النفوذ ، وانعدمت الحريات ، وانتهكت حقوق الانسان وانعدمت الثقة بين المواطن والمسئول ، وظهر تخلف الاتحاد السوفيتى فى مجال التكنولوجيا واضحا بالمقارنة مع الدول الاوربية .

(٢) ميخائيل جورباتشوف : البروسترويكيا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم اجمع — ترجمة محمد شومان وآخرون ، بيروت ، دار الفارابى ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ ص ٤٣ — ٤٤ .

كل ذلك عجل بسياسة البروسترويك ، وجعل جورباتشوف يتحمل العبء الثقيل الذى تتطلبه عملية التغيير من الاقتصاد الشمولى الى الاقتصاد الحر فبدأ وكأنه يتسلق جبلا لا تبدو قمته مرئية لتكاثف السحب عليها ، ولا يدرى أحد متى سينتهى جورباتشوف من صعود الجبل حتى يسجل عمله فى سجلات التاريخ الانسانى وخاصة أن البيريسترويك تواجه فى الوقت الراهن عددا من المشكلات السياسية والاقتصادية تهدد مسيرة الإصلاح والتغيير فى الداخل وتوشك أن تؤثر فى أجواء الوفاق على الصعيد الدولى .

فى المجال الداخلى تعد عملية النحول الى اقتصاد السوق الحرة من أهم المشكلات التى تواجه البيريسترويك ، كما أن تزايد المشكلات القومية داخل الاتحاد السوفيتى تمثل التحدى الأكبر لمسيرتها .

فى داخل الاتحاد السوفيتى حوالى ١٥٠ قومية^(٣) ، وتتزايد المطالب الانفصالية من جانب بعض الجمهوريات ، وهذا يهدد بمخاطر تفكك الاتحاد السوفيتى .

وقد اضطر الرئيس السوفيتى الى الدعوة لاجراء استفتاء عام على مستقبل الاتحاد السوفيتى ، واعداد مشروع معاهدة جديدة لهذا الاتحاد . أما عن المجال الخارجى فمما لا شك فيه أن مناخ الانفراج الدولى الذى أرساه الرئيس جورباتشوف كان له الدور الكبير فى انهيار حلف وارسو وابعاد شبح الحرب النووية وزوال المجابهة بين الشرق والغرب وانهاء الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى ، والى انتهاء التحالف الايديولوجى غير المثمر وتحول المناخ السياسى العالمى الى الأفضل وتفكك أوروبا الشرقية وقيام الوحدة الألمانية فى أكتوبر ١٩٩٠ واحلال توازن المصالح محل توازن القوى .

وهكذا دارت عجلة الإصلاح فى الاتحاد السوفيتى وستستمر فى الدوران

(٣) ميخائيل 'جورباتشوف : المرجع السابق ص ١٩ — ٢٥ .

مهما تكن التكاليف والتضحيات ، ويحاول جورباتشوف الآن الحصول على دعم اندول السبع الصناعية لبلاده عن طريق الحصول على مساعدات تصل قيمتها الى خمسين مليار دولار وجدولة ديون بلاده والسماح لها بالحصول على التكنولوجيا المتطورة بالاضافة الى مساعدتها في تحويل بعض صناعاتها العسكرية الى صناعات استهلاكية حتى يتمكن من تحويل الاتحاد السوفيتى من الاقتصاد الموجه الى اقتصاد السوق الحرة .

ولقد ضايقته حركة الاصلاح التى يقودها جورباتشوف العديد من المتشددين داخل الحزب الشيوعى السوفيتى ونظروا بهلع شديد للتغيرات والاصلاحات التى ادخلها الزعيم السوفيتى على سياسة بلادهم الداخلية والخارجية ونجحوا لفترة قصيرة بمساعدة جهاز المخابرات السوفيتى الكى . جى . بى وبالتعاون مع القيادة العسكرية للقوات المسلحة ممثلة في شخص الجنرال « بازوف » وزير الدفاع في عزل جورباتشوف حيث اطيح انقلاب بقيادة « جينادى ياناييف » في يوم الاثنين الموافق العشرين من اغسطس ١٩٩١ بالرئيس جورباتشوف بحجة انه عاجز عن الاضطلاع بمهام منصبه لاسباب صحية ، وشكل الانقلابيون لجنة طوارئ لادارة الاتحاد السوفيتى مما خيم على عواصم العالم وخاصة الولايات المتحدة والدول القريبة حالة من الصدمة ، والذهول والاستنكار لما حدث ، كما استنكر أبناء الشعب السوفيتى وعلى رأسهم « بوريس يلتسين » رئيس برلمان روسيا الاتحادية الانقلاب ووصفوه بأنه عمل غير دستورى مما أفضى لمحاولة الانقلابيين التى لم تستمر سوى ثلاثة أيام وعاد جورباتشوف الى موسكو وتسلم زمام السلطة من جديد ليقود سياسته الانفتاحية .

ثالثا - الوحدة الألمانية ١٩٩٠ :

نتيجة للتغيرات السياسية والاستراتيجية التى حدثت في السياسية السوفياتية بعد وصول جورباتشوف الى قمة السلطة في الاتحاد السوفيتى بدأت ألمانيا تتطلع الى وحدتها ، وتبدى رغبتها في انهاء التجزئة بين قسميها

والتخلص من الحكم الشيوعى فى الجزء الشرقى منها وكانت بداية الشرارة خطابا للزعيم الألمانى « هونكر » أعلن فيه تمسكه ببقاء سور برلين وبالنظام الشيوعى فى بلاده ، فأدى ذلك الى سحق الألمان الشرقيين ، وقرار بعضهم الى ألمانيا الغربية وبعض الدول المجاورة ، وقيام البعض الآخر بمظاهرات صاخبة للمطالبة بوحدة الوطن الألمانى وقد انتهت هذه المظاهرات بسقوط « هونكر » فى عام ١٩٨٩ واضطرار نائبه « ايجون كرينز » الى فتح منافذ سور برلين فى التاسع من نوفمبر ١٩٩٠ وإعلان أنه من حق أى مواطن ألمانى شرقى السفر الى ألمانيا الغربية من كل منافذ السور ، فساعد هذا على إيقاظ الشعور بالانتماء المشترك ، وبالرغبة فى العيش المشترك بحرية ، وقد ساعد على هذا التطور أن حدة التوتر بين الشرق والغرب كانت قد خفت . ونتيجة لذلك أعلن المستشار الألمانى هيلموت كول مشروعه من أجل إقامة وحدة ألمانية ، كما بدأ جولات ولقاءات متعددة مع زعماء الدول الكبرى المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية من أجل إقناعهم بقيام وحدة بين شطرى ألمانيا ، كما أعلن عن بدء مفاوضات بين الدولتين ، بمشاركة الدول الكبرى أطلق عليها مفاوضات (٢ + ٤) — بمعنى قيام دولتى ألمانيا بمفاوضات بالاشتراك مع الدول الأربع : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا — وكانت هذه المفاوضات بمثابة الإطار الدولى الأساسى لقيام الوحدة الألمانية ، وانتقلت جلسات هذه المفاوضات الى عواصم أوربية متعددة منها : لندن وباريس وبون وموسكو وبرلين ، وفى آخر هذه الجلسات تم التوقيع فى موسكو على اتفاق السيادة الألمانية فى الثانى عشر من سبتمبر ١٩٩٠ فأعطى الحلفاء لألمانيا السيادة المطلقة فى تصريف شئونها ، وتنازلوا عن كافة امتيازاتهم التى تحققت لهم فيها بعد الحرب العالمية الثانية .

وفى أعقاب هذه التطورات اقترح « المستشار كول » عقد مفاوضات بين شطرى ألمانيا من أجل مناقشة الوحدة النقدية والاقتصادية بينهما ، وانتهت المفاوضات باعتماد المارك الألمانى عملة وحيدة للتعامل بها بينهما ،

وأجريت أول انتخابات حرة في ألمانيا الشرقية لاستطلاع رأى الناس في الوحدة مع ألمانيا الغربية وكانت النتيجة مباركة هذه الوحدة .

وبعد مفاوضات طويلة بين الحكومتين اتفق على ان يكون الثالث من أكتوبر ١٩٩٠ هو موعد انضمام ألمانيا الشرقية الى ألمانيا الغربية في دولة موحدة . وهكذا بعد حوالى خمس وأربعين سنة من التقسيم حقق حلم الألمان بقيام ألمانيا الموحدة ، دون حرب او عنف ، واصبحت ألمانيا الموحدة حقيقة واقعة ترمز الى عصر جديد ، وفكر جديد يسود عالما المعاصر ، ويضع حجر الأساس لحقبة تاريخية جديدة في النظام الدولى يتجاوز فيها العالم كل أشكال الدكتاتورية والاستعباد والاضطهاد والتقسيم .

وهكذا كانت المتغيرات التاريخية التى حدثت في ألمانيا الشرقية وادت الى وحدة الشطرين ، نتيجة لجهود جورباتشوف الاصلاحية الشجاعة ، والمجهودات التى بذلها المستشار الألمانى هيلموت كول ووزير خارجيته جينشر .

وعلى الرغم من الصعوبات والمعوقات الداخلية التى تعترض هذه الوحدة نتيجة للالتزامات الضخمة التى نتجت من عملية توحيد نظامين اقتصاديين واجتماعيين متناقضين تماما والالتزامات المالية التى تعهدت بها ألمانيا الغربية للاتحاد السوفيتى وغيره بتمويل انسحاب القوات السوفيتية من ألمانيا الديمقراطية بمبلغ ١٢ مليار مارك ، فاننا نعتقد ان الشعب الألمانى قادر على التغلب على هذه الصعوبات والمعوقات .

وليس ببعيد أن تصبح ألمانيا الدولة السادسة من الدول الدائمة العضوية فى مجلس الأمن ، وان يكون لها دور قيادى فى منظمة الأمم المتحدة ، وفى اقرار السلام العالمى .

وهكذا يتضح أن سياسة الرئيس جورباتشوف الإصلاحية ، وتشكيره الجديد في مجال السياسة الخارجية حقق العديد من التفورات الجذرية في أوربا ، فتوحدت ألمانيا ، وإنهار حلف وارسو ، وبدأت رياح الديمقراطية تهب على وسط وشرق أوربا ، وبدأت أوربا المستقبل تأخذ وزنها ومكانها السياسى ، وتشرع في مرحلة جديدة من التاريخ الأوربى تتميز بالانتقال من المجابهة الى التعاون وتتجه فيها الشعوب الأوربية الى العيش فى تعاون كامل لتحقيق نظام سلمى فى أوربا يتسم بالاستمرارية والاستقرار .